النبـــيل

شاءت الظروف أن أجلس في المترو بجوار ضابط سابق بقواتنا المسلحة برتبة لواء، يتعدى السبعين خريفاً بعام أو ثلاثة على أكثر احتمال.. أعزه الله.

شعره يميل للون الأصفر قليلاً مع احمرار البشرة، من ملابسه تستطيع التعرف عليه جيدًا، نظافة ووقار، ولديه ثقافة عالية، يزيد طوله على الـ 180 سم، بشوش الوجه اجتماعي إلى أقصى حد.

ما جعله يقبل على الحديث معي ويفتح لي صدره بارتياح هو أنني وجدته يقف بجوار المقاعد المخصصة لكبار السن وذوي الاحتياجات الخاصة، في حين يجلس على أحدها فتى صغير السن لا يتجاوز الخمسة عشر ربيعًا!

كان – بحق – موقفًا سخيفًا ألا ينهض هذا الصبي من مكانه؛ ليُجلِس بطلاً من أبطال مصر يتجاوز عمر جده! حينها كنت أقف بجوار الضابط، حيث يتشبث كلانا بالحلقة البلاستيك المثبتة بماسورة ترتفع عن أرضية المترو حوالى 180 سم.

نظرت إلى الصبي وإلى شعره الطويل الذي يربطه من الخلف بـ«فيونكة» مثل الفتيات باستغراب، لكنه لم يبالِ، حينها ارتفع صوتين وقلت له:

– أظن من العيب – كل العيب – أن تجلس أنت في المكان المخصص لكبار السن، في حين تشاهد رجلاً من عُمر جدك لا يقوى على الوقوف، ثم تنظر إليه وكأنك لا تراه!!

نظر إليَّ الشاب وكأنه لم يسمع ما قلت بسبب السماعة التي أوصل طرفًا منها في أذنه، بينما الطرف الثاني في هاتفه المحمول. ثم سألني بعد أن أحس بغضب على ملامح وجهي:

– هو انت بتكلمني يا عمو؟!

قلت له:

– ومن غيرك صغير السن بين هؤلاء؛ لأطلب منه ترك مقعده لهذا الرجل المُسن؟

بكل أمانة، لم أتوقع أدب الصبي وخلقه في الرد.. حيث أومأ برأسه مُبديًا أسفه مرتين – كما قال لي – المرة الأولى أنه لم يسمع ما قلته، والثانية أنه لم ينتبه لوقوف هذا الرجل الذى يحق له الراحة على المقاعد المخصصة له ولمن هم بمثل عمره.

فما كان مني إلا أن شكرت الصبي على ذوقه وحسن اختيار كلماته.

جلس الرجل الكبير عمرًا ومقامًا.. ولحسن حظي أن السيدة التي كانت تجلس على الكرسي الملاصق للصبي نزلت محطتها.

ومن ثم جلست بجوار الضابط، وبدأ يحدثني عن نفسه وتاريخه، فعرفت أن له صولات وجولات في الحروب الثلاثة التي خاضتها مصر حديثًا، منذ أن تخرج برتبة ملازم في سلاح الصاعقة، حتى وصل إلى رتبة لواء أركان حرب.

ثم قال لي بعد أن علم بأني صحفي:

– تعرف يا ابنى، يتملكني الآن خوف شديد على الأجيال الحالية من سموم الجماعة الإرهابية، حالة من التخبط والتشتت ألاحظها على عدد كبير من تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات في تفسير ما يحيط بهم من أحداث جسام. نحتاج الآن يا ولدى وليس بعد إلى تنسيق كامل يبدأ من الأزهر الشريف والكنائس، مرورًا بالأسرة والمجتمع ككل، ثم وزارتي التربية والتعليم والتعليم العالي، ختامًا بالإعلام بصفتك إعلاميًّا؛ وذلك لوضع مخطط علمي وعملي لمواجهة أعداء مصر في الداخل والخارج.

وبصوت حزين ومكلوم يضيف:

– منذ عدة أسابيع مضت وقفت لأدرس في كلية ناصر العسكرية لعدد من أبنائنا، وتطرقت في محاضرتي لحديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي يقول: إذا فتح الله عليكم مصر.. فاتخذوا منها جندًا كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض. هنا اعترض كلامي أحدهم، وقال لي: سيادة اللواء، أنا سمعت من أعلم علماء الأرض ما يؤكد ضعف هذا الحديث، سألته:

– ومن هو يا بنى أعلم علماء الأرض الذى سمعت منه هذا الكلام؟

فرد هذا الابن المُغرَّر به، وقال:

– إنه الشيخ أبوإسحاق الحويني.

وهنا صُعقت، وقلت له:

– مع احترامنا لشخص الشيخ وعلمه، إذا كان أبو إسحاق كما تقول، فكيف نصنف فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوي الذى استشهد بهذا الحديث في أكثر من موضوع، ووصف جيش مصر بأنهم «جنود الحق»؟ يا بنى انتبه للمؤامرات التي تحاك ضد وطنك ودينك وجيشك، فهذا الكلام إن صح وقاله رجل في علم ومكانة «الحويني»؛ فلا بد أن هناك خطأ يجب تصحيحه.

وقبل أن يُكمل اللواء، سألته:

– وماذا عن رد فعل هذا الشاب على ما قلته سيادتك؟

– ولا شيء – للأسف الشديد – سوى أنه واصل الحديث عن الشيخ بتاعه، حينها قلت له:

– يا بني إذا نظرت إلى تركيبة الجيش المصري، فستجده مختلفًا عن جيوش العالم قاطبة.. جيش مصر العظيم يتكون من الفقير والغني، المثقف وغير المثقف، المتعلم وغير المتعلم.. الصعيدي والبحراوي، الأبيض والأسود، جيش مصر لا يفرق بين أحد، الكل فيه سواء.

ويضيف:

– أي أن جيش مصر من كل أبنائها وليس من طبقة دون أخرى أو فئة دون غيرها كما شاهدنا وتابعنا ذلك في العديد من الدول، التي تهاوت لعدم التجانس بين عناصر جيوشها؛ لذا أقول لك يا بني بأن جيشنا حمى مصرن وحافظ عليها منذ أحمس الأول، مرورًا بالضابط الألباني محمد علي، وحتى ثورتي 25 يناير و30 يونيو، كما حافظ أيضًا وما زال يحافظ على أمته العربية والإسلامية.

وتابع سيادته النصيحة المُخلصة للطالب المُغرَّر به، فقال:

– نعم يا بني، إن جيش مصر يتبع شعبه فقط. جيش مصر لا يأتمر إلا بأمر شعبه فقط. جيش مصر نزل في 25 يناير بناءً على رغبة الشعب ضد قائده الأعلى، بمعنى أن قواتنا المسلحة تحمي إرادة وشرعية الشعب ولا تنحاز لمن يلفظه الشعب، وهذا ما حدث أيضًا قبل وبعد 30 يونيو 2013.

هنا انتهى كلام اللواء، وكأنه أجاب ضمنيًّا على سؤالي.

وقبل أن ينزل محطته، مد يده لي بالسلام.. وحين وقفت لأسلم عليه، وأمسك

بيده، مساعدًا حتى ينزل من عربة المترو، حمَّلني وصية بنقل هذا الكلام للقارئ؛ حتى يدرك خطورة ما يُحاك لشبابنا.

فطمأنته، وقلت له:

– على الرحب والسعة، فمن أولويات واجبي المهني أن أنقل ما قلت للقارئ؛ حتى يفهم، ويعرف جيدًا جزءًا مما يدور في عقل هؤلاء الشباب، بناءً على توجيه من رموز دينية كنا وما زلنا نتوسم فيها الخير، خصوصًا بعد الظروف التي واجهتها مصر على يد جماعة تمسحت بالدين واستغلته. والله يعلم أن الدين منها ومن جرائمها بريء براءة الذئب من دم يوسف عليه وعلى نبينا وأنبياء الله أفضل السلام.

وفعليًّا أريد أن أنقل للقارئ ما قاله هذا البطل الوطني، ثم أقترح على مسؤولينا أن يبادروا بإعداد منهج دراسي لأبنائنا عن تاريخ قواتنا المسلحة، وعن دورها في السلم والحرب؛ حتى نحصنهم ضد مرضى النفوس الضعيفة الحاقدة الذين يهاجمون ويشوهون صورة كل ما هو وطني وشريف في هذا البلد، فجميعنا ما زال يتذكر الشعارات المعادية التي رُفِعَت بيد الخونة والعملاء منذ 25 يناير وحتى وقت قريب ضد رموز عسكرية عظيمة، وضعت أرواحها على أكفها من أجل مصر.. انتهى.